مقـــدمة

شعب تحرر . . وكتاب تحرر !

اليوم وقد شاءت عناية الله أن يتحرر ملايين المصريين من إسار العبودية ، وقد تحطمت قضبان السجون الحديدية وغير الحديدية ، لينطلق المجاهدون الصابرون إلى عالم الحرية . . أتيح لهذا الكتاب السجين أن يتحرر وينطلق إلى أيدى جماهير الشعب المصرى ، فى وقت هى أحوج ما تكون فيه إلى ما يوقفها على حقائق الأشياء ، ويكشف لها عن أخطاء الأمس ، ويوجهها فى كفاحها الشعبى الوطنى وجهة صحيحة نافعة فمصر اليوم أحوج منها فى أى وقت مضى إلى ما يعينها على الخروج سريعاً من مرحلة الانحلال ، التى أشرفت بحمد الله على الزوال ، ولم يكن هناك مفر من المرور بها كمرحلة انتقال بين طور فاشل من أطوار حركتها الوطنية ، وبين طور جديد وضع الجيش الباسل أساسه المكين بحركته المباركة التى فرضت إرادة الشعب ، ودعمت سلطانه ، وردت إليه عزته وحريته .

وإذا كانت فترات الانحلال كالحمى ، لا بد أن تأخذ دورها ، وأن يستغرق البراء منها وقتاً ، فنحن اليوم وقد ضرب الجيش ضربته السديدة الفاجئة ، إنما نواجه مسئوليات جساما نسأل الله العلى القدير أن يعاوننا على النهوض بها ، فى هذه اللحظات الحاسمة من تاريخنا الحديث . وإنه لمجهود ضخم ولا شك أن نحافظ على ثمار هذا الانقلاب الذى قامت به نخبة مؤمنة من أبناء مصر ، قوضوا صرح الطغيان ، وبددوا سحب اليأس ، وأعادوا إلى الشعب إيمانه بنفسه وثقته بمستقبله .

ليس بناء هذا المستقبل بالأمر اليسير ، فعملية البناء ونحن لم نبرء من فوضى الانحلال تماما ، وقد امتد الفساد إلى كل ناحية من نواحى حياتنا ، إنما تتطلب جهوداً شاقة مضنية ، يجب أن تبدأ بمرحلة تصفية وتطهير تعجل بزوال مرحلة الانحلال وتقضى على آثاره ومخلفاته قضاء مبرما .

لقد درست نفسية الانحلال طوال الأعوام الماضية ، فلم أعتقد يوما فى سهولة القضاء على فوضى الانحلال وحمى نشاطه المفتعلة . بعد أن عمت تلك الفوضى ، وتضاعفت تلك الحمى وتذبذبت فكرة الاصلاح وتأرجحت بين التيارات الانحلالية المهوشة المتباينة . . تلك التيارات الفكرية التى تتجاذب الشعوب عادة فى مراحل انتقالها من طور إلى آخر من أطوار حياتها . ولكم هالنى أن أرى فكرة الاصلاح تنحرف وسط هذه التيارات مع عبث الوصوليين والحالمين ومحاولاتهم الضارة أو السابقة لأوانها ، وقد حجب اتجاهها السليم طغام الانحلال الفكرى . فكان أخوف ما أخشاه أن تتمكن العناصر الوصولية والانتهازية متنكرة فى ثياب الجيل الجديد من ركوب الحركة المصرية فى طورها الجديد ، كما ركبتها وأساءت توجيهها فى أكثر أطوارها السابقة . ولم يكن هذا بالأمر البعيد الاحتمال . وقد ضاعفت حكومات الجيل القديم من فوضى الانحلال ، وزادتها حدة واضطرابا بإمعانها فى سياسة الكبت المطلق التى أفسحت مجال الظهور الرخيص لأدعياء الإصلاح وطلاب البطولة الكاذبة . فما كان أسرع طغيان الأفكار السخيفة المهوشة على الأفكار السليمة الطيبة ، فتبلبلت الأفكار وتوترت الأعصاب وعم القلق . وتعددت حماقات المتلهفين ، ومحاولات الانتهازيين واختلطت بمهاترات الأحزاب القديمة البالية . مما لبد جو السياسة المصرية بالغيوم ، فولد اليأس فى نفوس الضعفاء وأثار فى نفوس الأقوياء القلق !

رأيت كل هذا وصادفت بعض العناصر الغريبة تحاول استغلال تلك الفترة وما يتخللها من تلهف وقلق ، بتسخير بعض أدعياء الإصلاح فى تسميم الأفكار ، وإضعاف المقاومة الشعبية ، وفى محاولة إساءة توجيه الانقلاب المنتظر ، على نحو يهدد كيان البلاد بالخطر ، مالم يفطن الواعون من أبناء الشعب إلى حقيقة تلك العناصر ، فبادروا إلى رد الإيمان إلى من شككتهم أو غررت بهم ، وقابلوا دعايتها الخبيثة بسيل متدفق من الأفكار السليمة الطيبة .

رأيت كل هذا فهالنى الأمر . وأردت أن أعمل شيئا لمواجهة هذه الحالة . ففكرت أوائل عام ١٩٤٢ فى أن أخرج للناس جانبا من هذا الكتاب باسم « تيارات الانحلال وتيارات الحرب فى مصر » أوضح لهم فيه خفايا فترة الانحلال من الناحية النفسية ، وأحلل اتجاهات الإصلاح ومحاولاته الارتجالية ممثلة فى جماعات الانحلال المتعددة ، مبرزا ما علق بها من فساد ، وما شابها من خطأ ، منبها إلى ما يصيبنا من ضرر لو لم يفسح مجال الظهور ، للثورة الفكرية المحبوسة فى الصدور ، وتوجه الوجهة التى تتفق وصالح البلاد ، وتحقق للشعب ما يرجوه من إصلاح شامل يرد إليه إيمانه وحريته وكرامته .

والحق أنى ترددت كثيراً بين نشر هذا الكتاب وإرجاء نشره ، وقضيت فى اختصاره وتخفيفه أكثر مما قضيت فى تحضيره وكتابته ، محاولا قدر الطاقة أن أوفق بين ما يسمح بأن ينشر وما يجب أن ينشر . وكانت تلك لعمرى مهمة دقيقة ، وعلى النفس ثقيلة ! فما أشد ما يؤلم الكاتب أن يبتر مكرها بعض ما كتب ، لكى يفلت من مقص الرقيب ، فيحافظ بذلك على تسلسل البحث ووحدته .

كانت الرقابة على النشر فى ذلك الوقت شديدة صارمة وكان مقص الرقيب مختلا أهوجا ، يقص ذات اليمين وذات الشمال . لا يترك فقرة إلا وينتزع منها أسطراً ، ولا يكاد يمر بسطر إلا وينتزع بعض الكلمات منه . وقد رأيت ما فعل بأحد فصول هذا الكتاب يوم دفعت به لجس النبض إلى إحدى الصحف . فقررت بعد تردد طويل إرجاء نشره إلى حين ، وقد تركت بعض نسخ منه تتداول بالآلة الكاتبة ، وقعت إحداها يوم اعتقالى أول أغسطس سنة ١٩٤٢ فى يد رجال المخابرات والأمن . وطلبت ردها إلى أكثر من مرة ، لأعيد كتابة هذا الكتاب بتوسع وصراحة ، فلم يرد على طلبي بقبول أو برفض ، مما اضطرنى إلى تهريب نسخة أخرى إلى معتقل المنيا ، أرجع إليها كلما خلوت إلى نفسى ، وأعيد كتابة بعض فصولها فى حذر !

فلا عجب إذا كنت بمثل هذا الكتاب المجاهد أعتز . لا سيما وأنى أنظر إليه ، وإن لم أفرغه فى قالب مذكرات خاصة ، كجزء من حياتى هو الأصخب والأهم . . . استعدت فى ذهنى بكتابته أعواما مضت حافلة بالذكريات ، مثيرة لشتى المشاعر ، وأفرغت فيه من الآمال والأهداف ما طال احتباسه فى الصدر .

ليس هذا الكتاب بمجموعة من الآراء والنظريات ، وما كنت لأرجع فى وضعه إلى عشرات المراجع والكتب . إنما هو خلاصة تجارب قاسية ، ونتاج رحلة طويلة شاقة فى دنيا الانحلال ، الذى تتعرض له الشعوب تعرض الأفراد للأمراض ، والجماعات للاوبئة . فما من أمة إلا وقد مرت فى تاريخها بفترة انحلال أو أكثر ، جاءت عقب الانغماس فى الترف ، أو الفساد الاجتماعى والخلقى ، أو سوء التوجيه القومى ، أو الهزيمة الماحقة

فى حرب ، وما إلى ذلك من عوامل تدهور الشعوب وانحلالها .

قد تطول فترات الانحلال أو تقصر ، تبعاً لمبلغ شدة العوامل التى سببتها ، وتبعاً لتفاوت الشعوب فى حيويتها واحتمالها . وإذا كان للشعب المصرى أن يفخر ، فليفخر بأنه مر بالكثير من تلك الفترات ، واستطاع أن يبرأ باحتماله العظيم من قروح الانحلال أكثر من مرة ، وأن ينهض بحيويته النادرة من عثرته كل مرة ! فبينما قضى الانحلال على الكثير من الشعوب ، حتى لقد أزالها من الوجود تماما ، نرى الشعب المصرى ، أقدم شعوب الأرض وأعرقها مدنية ، قد احتفظ إلى اليوم بوجوده وكيانه وحيويته ، ولا عجب فالمصرى من معدن قوى سليم ، صهرته القرون وعجمته الحوادث ، وقد عاش بمدنيته العظيمة ، أولى المدنيات جميعاً ، نيفاً وأربعين قرناً ، ثم تعاقب عليه الغزاة فكسر شوكتهم ، ونجا من أخطار الانحلال الذى يسيطر على نفوس الشعوب المغلوبة عادة ، وظل محتفظاً بكيانه وطابعه الخاص وقوميته .

هذا هو الشعب العظيم الذى هيأ المدنية أن تظهر لأول مرة على وجه الأرض . هذا هو الشعب الذى وصمه بالأمس ضعاف النفوس بأنه شعب خليط ضربت عليه الذلة والمسكنة ، ولم يكن مثل ذلك الشعور الانحلالى الحقير ، إلا عرضاً من أعراض الانحلال ، حيث يجثو شعور اليأس على شعور الأمل ، وقد غاب عن أمثال هؤلاء المستضعفين الشواذ أن الشعوب لا تذل إلا إذا ذل أفرادها ، وأنهم إنما يزيحون ذلتهم على الشعب ، ويرمونه بنقائصهم وشذوذهم . فما هم إلا شواذ ضعاف النفوس ، ما كادوا يتجرعون أول جرعة من مر الانحلال المؤقت حتى فقدوا كل إيمان وعزة وثقة ، ولم يدركوا بعقولهم المغلقة أن فترة الانحلال بطبيعتها عارضة مؤقتة

وفى استطاعة الشعب أن يخرج منها سالما إلى طور رقى وانتعاش جديد ، يستطيع أن يخلقه خلقاً جديداً ويوجهه الوجهة النافعة !

وأنا إذ أبدأ كتابى هذا بالدراسة النفسية لفترة الركود والانحلال هذه ، إنما أرمى إلى تصويرها لأمثال هؤلاء المستضعفين الشواذ ، ولجماعة الفاترين والحائرين من جهة أخرى ، كفترة انحلال عارض ، لابد من توسطها كمرحلة انتقال بين طور قومى أشرف على الزوال ، وبين طور جديد واضح الأهداف ، قوى الأساس ، إيجابى الوسائل ، ولهذا لم يكن هناك مفر من أن يعمها شعور اليأس طالما أنها تبدأ بانهيار زعامة أخطأت توجيه الحركة القومية وانتهت جهودها بالفشل .

هذا الفشل الذى يصب الفتور أو اليأس فى نفوس الغالبية الغالبة من الجماعة ، يلقى من ناحية أخرى بهؤلاء الذين يحتفظون بحيويتهم وإيمانهم بالمستقبل فى سلسلة من المحاولات الحائرة ، التى تكثر وتختلط بالمحاولات الطائشة والمغرضة لفريق الوصوليين والنفعيين وأصحاب المطامع ، الذين كانوا يتمسحون بأعتاب الزعامة القديمة وهى فى أوج سلطانها ، والذين ما كانوا ليظهروا فى الميدان لولا زوال هيبتها وبروز معالم انهيارها . من هنا كانت فوضى الانحلال الفكرية التى تعم وتشتد كلما ازدادت فكرة الإصلاح تذبذباً بين تلك المحاولات المتباينة ، والتى لن تنتهى إلا باستقرار فكرة الإصلاح فى اتجاه صحيح معين ، بظهور طلائع الزعامة الجديدة ، التى تكتسح محاولات الانحلال فى طريقها ، بانخراط الحائرين فى صفوفها ، وبتخلى الفرصيين وأصحاب المطامع عن محاولاتهم السابقة لأوانها ليحجزوا لأنفسهم مكاناً فى الزعامة الجديدة متى لاحت فى الأفق القريب أو البعيد بوادر انتصارها الأولى .

تلك الزعامة الجديدة لم تكن لتنزل إلى الميدان إلا متأخرة ولا مفر من أن يسبق ظهورها وقت تعم فيه الفوضى الفكرية ، ويحجب أدعياء الإصلاح دعاة الإصلاح الحق ، وما كان هذا التأخير ليضعف من إيمان رجالها الأوائل . فهم ليسوا بتجار سياسة حق يفضلوا كسباً عاجلا ، أو ليطعموا فى شهرة وقتية زائفة . وعندهم من الثقة بالنفس ، والاعتداد بالمبدأ ، والإيمان بحركتهم الجديدة وبانتصارها المؤكد مهما طال النضال وأيا كانت الصعاب ما يجعلهم لا يتلهفون ولا يأبهون بأن تبخس أقدارهم بعض الوقت . أو يفزعون من ترفع وصولى عليهم ، وصل بوصوليته إلى مركز يظنه أعلى ، وهو فى الواقع أدنى وأحقر وأخس !

ومما أطال فترة الانحلال أن بدت كتلة الشعب غير مكترثة بما يحدث وقد سلبها الجهل المطبق والفقر المدقع كل إيمان ، ووعى قومى ، وثقة بالمستقبل ، وعزة نفس وكرامة . والناس عموما وقد تفشى فيهم مرض « التوكل » أو « التواكل » بمعنى الاستسلام للظروف والإيمان الأعمى بالقضاء والقدر ، أصبحوا يتمسكون بما هو كائن ، ولا يفكرون فى خير ما يجب أن يكون . يقعدون عن كل شىء ويدعون أنهم عاجزون عنه . لكأن الذلة قد ضربت عليهم ، ولكأن المظالم الاجتماعية تبدو لهم نظما طبيعية راسخة ! فلا عجب إذا قابلوا كل فكرة إصلاحية جديدة بعدم الاكتراث ، وبالشك فى جديتها ونجاحها . ولا عجب إذا نفرتهم محاولات الانحلال المرتجلة التافهة فى كل محاولة جديدة للعمل . . . لا عجب إذا عكف المصلحون المخلصون إزاء كل هذا على دراسة الميدان قبل النزول ، وترددوا قليلا فى الجهر بآرائهم خشية أن يساء فهمها ، أو أن ترسب إلى القاع تحت ريح الانحلال الفكرى ، أو أن يعلق بها !

أما أدعياء الإصلاح فما أيسر ما يندفعون إلى الظهور ، وقد وجدوا فى سياسة الكبت المطلق السبيل لإشباع بطولتهم الرخصية . يتندرون بالاضطهاد ، ويتعجلون الحوادث ، بانين بأحلامهم الصبيانية على الرمال قصورا من ورق ! وقد أغراهم على الظهور وأشعل أطماعهم الشخصية ركود الأحزاب القديمة ، وفتور أنصارها ، وزهد الناس فى تتبع أخبارها وتبرمهم بخلافاتها ومهاتراتها ، حتى لقد بدا كرسى الزعامة شاغرا فى الجو لكل حالم ، يتطلع الناس إلى انقلاب جديد ، لايدرون ماهو ، ولايريدون أن يخلقوه بأيديهم . . . وإنما يتوكلون على الله ، وينتظرون أن يهبط هذا الانقلاب عليهم من السماء لإنقاذهم ! حتى أنك لم تكن لتحدث مصريا مثقفا أو واعيا إلا ويبشرك بوقوع هذا الانقلاب المنتظر . أما كيف يكون هذا الانقلاب ، ومتى يظهر ، وأين هى الاتجاهات الفكرية التى نستطيع الاستدلال منها على نوعه وغايته ، فهذا ما لم يفكر فيه دعاة الإصلاح الموعود ، وما لم يكد يهتم به أحد .

هذا الفراغ فى تفكير الناس ، ووقوفهم موقف الانتظار والأمنية ، ضاعف حمى الانحلال وأطال مدتها ، وأغرى كل محب للظهور على أن يؤجر دارا ويعلق لوحة ، ثم يحلم أنه يتزعم حركة ! ومن هنا كثرت جماعات الانحلال وتعددت . وأساء المتزعمون المتنافسون إلى فكرة الإصلاح وأفسدوا . وقد كاد ترك أمر هذا الانقلاب هكذا للقضاء والقدر يؤدى إلى إفلات زمامه من يدنا ، واتجاهه وجهات ضارة غريبة لا يزيدها ، ولا تتفق وظروفنا الخاصة ، إن لم تضعف مقاومتنا الشعبية وتهدد كياننا .

لهذا كان من الضرورى أن نبحث أمر هذا الانقلاب على ضوء

تجارب الماضى ، ومراعاة ظروفنا الحاضرة ، وبدون أى إغفال للتيارات الفكرية والاتجاهات المستقبلة فى مصر والخارج . ونحن إذ نفعل هذا نستطيع الهيمنة التامة على الانقلاب وتوجيه الوجهة المناسبة التى نريدها ، وهذا ما سنحاوله فى الفصول التالية ، بعرضنا السريع للحركة المصرية فى أطوارها المختلفة ، مع تتبع اتجاهاتها المستقبلة . وسنكون فى عرضنا هذا صريحين إلى أبعد حدود الصراحة . فبالصراحة وحدها نستطيع أن نهدى أصحاب الحوافز إلى الطريق الصحيح للتفكير فى الإصلاح ، وأن نخلص الحركة الجديدة من عناصر الانتكاس والضعف ونطهر صفوفها من الوصوليين والانتهازيين ، ونوجهها الوجهة السليمة التى نراها نافعة .